العنوان:	الأمير شكيب أرسلان 1869 - 1946
المصدر:	مجلة أمل
الناشر:	محمد معروف
المؤلف الرئيسي:	بروفنصال، ليفي
مؤلفين آخرين:	تابليت، علي(مترجم)
المجلد/العدد:	مج 8, ع 24
محكمة:	لا
التاريخ الميلادي:	2000
الشهر:	أكتوبر
الصفحات:	209 - 234
رقم MD:	409318
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	EcoLink, AraBase, HumanIndex
مواضيع:	الاعمال الادبية، أرسلان ، شكيب ، ت 1946 ، السياسيون اللبنانيون ، العالم العربى ، الصراع السياسى ، الاحوال السياسية ، القومية العربية ، الانتاج الفكرى ، التراجم
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/409318

الأمير شكيب أرسلان (1869 - 1946)

ليفي بروفنسال

ترجمة: علي تابليت*

نظرا لأهمية هذه الشخصية العربية ودورها في الحركات التحرريـــة العربيـــة في المشرق والمغرب العربيين، خاصة بعد الحرب العالمية الأولى وإلى غاية وفاته. رأيت أنه مـن الواجب تقديم حياته وأعماله فيما قدمه الأستاذ ليفي برفنصال في مقاله المنشور في مجلـــة "دفاتر الشرق المعاصرة" العددين 9 — 10 — 1947 ص.5 — 19. وقبل تقديم ترجمة النص، من حق الأستاذ ليفي أن نعرف به:

ليفي بروفنصـــلل EVARISTE LEVI-PROVENCAL(1894 — 1956)(1) مستشـــرق فرنسي اشتهر بأبحاثه في تاريخ المسلمين في إسبانيا.

---

* أستاذ باحث بمعهد الترجمة جامعة الجزائر .

ولد في مدينة الجزائر العاصمة في 1984 من أسرة يهودية وتعلم في ثانوية قسنطينة (بالجزائر). ثم دخل جامعة الجزائر فتتلمذ على رينيه باسي (René Basset) وجيروم كركو بينو الشهير بأبحاثه في التاريخ الروماني وشيشرون بخاصة. وتردد بين اتجاهي هذين الأستاذين: الدراسات العربية والدراسات الرومانية. ولما قامت الحرب العالمية الأولى التحق بالجيش الفرنسي في الشرق، وجرح في معركة الدردنيل الشهيرة، فأرسل إلى مدينة الاسكندرية للعلاج من جراحه. فلما شفي منها أرسل إلى المغرب حيث عهد إليه بقيادة موقع في وادي ورجلة بالقرب من حدود الريف بالمغرب فكان لهذا أثره الحاسم في تحديد اتجاهه إذ اختار الدراسات العربية الإسلامية نهائيا. وفي 1920، عين أستاذا في معهد الدراسات العليا المغربية في الرباط، وأعد رسالة الدكتوراه في رسالتين: فانتهى منهما فحصل على الدكتوراه في 1922 وعنوانهما:

1 ـ "مؤرخو الشرفاء: بحث في كتب التاريخ والسير في المغرب من القرن 16 إلى 19" باريس، الناشر LEROUX 1966 في 470 صفحة.

2 ـ "نصوص عربية من ورغلة: لهجة جبالة (شمال المغرب)، باريس، الناشر LOUROUX، 1922 ، في 285 صفحة.

ذهب إلى مصر وأقام بها مدة طويلة. وفي سنة 1935 عين أستاذا للتاريخ الإسلامي في كلية الآداب بجامعة الجزائر، وبعد قيام الحرب العالمية الثانية وهزيمة فرنسا في جوان 1940، صدرت في فرنسا قوانين ضد اليهود بإلغاء أمر كريميو (وزير العدل) الصادر في 24 أكتوبر 1870 والمتعلق بالتجنيس الجماعي ليهود الجزائر ليصبحوا مواطنين فرنسيين.

لكن تدخل الولايات المتحدة الأمريكية ألغى الأمر الجديد. وعين ليفي اسميا أستاذا في كلية الآداب بجامعة تولوز (جنوب فرنسا) في 1945 فأخذ في تحرير المجلد الأول من كتابه:"تاريخ إسبانيا الإسلامية"، وظهر هذا المجلد في القاهرة في 1944 وبعد تحرير باريس في أوت 1944 ذهب إليها في نفس السنة، وعين أستاذا للدراسات العربية في كلية

الآداب (السوربون) بجامعة باريس واستمر في هذا المنصب حتى وفاتـــه 1956. وفي 1954 أسس مجلة Arabica التي أصبحت أهم مجلة فرنسية متخصصة في الآداب العربية والعلـــوم الإسلامية، ولا تزال تصدر حتى اليوم.

له أبحاث وتحقيقات في التاريخ الإسلامي لا يتسع المقام هنا لذكرها كلها لطولهـا فعلى المهتمين به أن يراجعوا: Regis Blachére, in Arabica,Tome III,fasc 2, pp.133 - 46

توفي الأمير شكيب أرسلان في بيروت يوم 9 ديسمبر 1946 عن عمر ينـــاهز 83 سنة وقل من ملأ حياته الفكرية والسياسية من الساسة والكتاب كالذي فعله هذا الرجـل الفذ وسنتعرض لحياته باختصار في السطور الآتية وبأكبر قدر ممكن من الموضوعية. ونـود منذ البداية أن نشيد إشادة لا تحيز فيها بالنشاط الدؤوب الذي بذله هذا الأرســتقراطي الدرزي خدمة للغة العربية. هذا الرجل الذي لم يكن يخشى أن يعيش الجزء الأكبر مـــن حياته غريبا عن وطنه وأن لا يعود نهائيا إلى بلده إلا لكي يلتحق بجوار ربه عقب بضعـة أسابيع من عودته.

ولد شكيب أرسلان يوم 25 ديسمبر 1869 في الشويفات، إقليم الشوف في لبنان جنوبي بيروت. وتنتمي أسرته "أسرة أرسلان" إلى الطائفة الدرزية الهامة في هذه المنطقـــة التي استقرت فيها منذ القرن الحادي عشر ولا تزال مقيمة بها جزئيا حتى يومنا هذا. وكان فرع من هذه الأسرة قد استوطن منذ منطلع القرن الثامن عشر ناحية حـــوران (جبـل الدروز) وكـــانت أسرة أرسلان عند ولادة شكيب أكثر أسر الطائفة الـــدرزية نفوذا في الشرف الـــتي كانت تمارس عليها حـــق السيادة المتوارثة. كما كانت تحظـــى بتقديـــر واحترام كبيرين لدى السلطات التركية فـــي لبنان التي كانت توظف من بـــين أفرادهـــا سامي موظفي الأقاليم.

كان عم شكيب أرسلان مصطفى أرسلان قائمقام دائرة الشوف وكـــان أبـــوه حمود مدير مقاطعة أصغر. وكان جميع أفراد هذه الأسرة الدرزية يلقبون عادة وبصـــورة تقليدية بالأمراء.

كان شكيب ثاني أبناء حمود أرسلان الأربعة. وقد توفي أخوه الأكبر نسيب الذي يكبره بسنة واحدة ونصف السنة عام 1934 بعد ان ذاع صيته في المشرق كشاعر وأديب وعن أخويه اللذين يصغرانه وهما حسن وعادل نذكر فقط أن ثانيهما تقلد خلال السنوات الأخيرة، ومرات عديدة مناصب وزارية في الحكومة السورية بعد أن كان موظفا تحت النظام العثماني، وتولى طوال بعض الوقت منصب قنصل في البرازيل.

وكما نرى إذن، فلا داعي إلى التأكيد بأن شكيب أرسلان لم يكن لا من حيث مولده ولا من حيث ارتباطاته العائلية، سوريا بالمعنى الضيق للكلمة. وكان في الأصل مثل جميع ذوية ذا صلة بالطائفة الإسماعيلية المسارة (تطبق مبدأ التخفي والكتمان) التي ينتمي إليها دروز لبنان ولغة هؤلاء الدروز الأصلية هي اللغة العربية التي هي أيضا لغة عدد كبير من الطوائف المسيحية السورية واللبنانية وقد كرس شكيب سنوات مراهقته لتعلم هذه اللغة والتضلع فيها. وتلقى تعليمه هو وأخوه نسيب في بيروت وفي مدرسة الحكمة وتابع في المدينة نفسها ابتداء من سنة 1886 دروس العالم المصري الشهير محمد عبده الذي سيغدو من أكبر دعاة النهضة الإسلامية، وهو منفي آنذاك بلبنان. وقد أخذت الملامح الأدبية تظهر على شكيب أثناء سنوات دراسته تلك و لم يتخط الرابعة عشرة من عمره عندما كان ينشر قصائده الشعرية الأولى في الجرائد وفي سنة 1887، أي في الثامنة عشرة من عمره نشر كتابه الأول وهو ديوان شعر بعنوان "باكورة" وكان ذلك نقطة انطلاق لنشاطه ككاتب سرعان ما غدا من أخصب الأنشطة الأدبية. وقد أسعفه قلمه السيال طوال حياته فصار يجتلب إليه يوميا كثيرا من المعجبين الذين بهرتهم موهبته الأدبية الفائقة ولو أن بعض النقاد المشارقة أخذوا عليه على مر السنين عدم تجديده لغته وأسلوبه فإن سمعة شكيب أرسلان وشهرته اكتسبهما من سحر بيانه وسيولة قلمه إلى درجة أنه صار معروفا في العالم العربي بلقب "أمير البيان".

وإذا صدق ما ذكره وايدمر (Widmer) الكاتب الألماني لسيرة شكيب أرسلان فإن هذا الأخير عين خلال سنة 1887 مديرا لإقليم الشوف خلفا لأبيه الذي وافته المنية.

و لم تمض سنتان حتى تخلى عن وظائفه تلك وباشر رحلة طويلة دراسية قادته إلى أوربـــا. فأقام على التوالي في القسطنطينية حيث واظب على مخالطة جمال الدين الأفغاني ومصاحبته هناك وفي باريس ولندن. وقد أتقن في هذه المدن اللغات التركية والفرنسية والإنجليزيـــة كما تدرب في الوقت ذاته على السياسة. وعاد إلى المشرق سنة 1893 فتعاطى الصحافـــة وكان ذلك هو العهد الذي أخذت فيه الصحافة العربية بأسباب النمو والتطور اللذيــــن تشهدهما اليوم. بدأ شكيب أرسلان بنشر مقالات سياسية تجتلـــب الانتبـــاه في يوميـــة "الأهرام" التي تصدر بالقاهرة ثم صار مراسلا لعدة صحف مشرقية ولا ســـيما صحيفـــة المؤيد و لم يتخط الثلاثين سنة من عمره حين صار من ألمع الصحافيين في العالم العربي.

كانت علاقاته بتركيا التي كانت سوريا ولبنان من ولايتها علاقات جيـــدة بـــل ممتازة. وعندما استقال عمه مصطفى أرسلان من منصبه كوال أو حاكم لإقليم الشـــوف سنة 1902، خلفه شكيب أرسلان. وقد حافظ على هذا المنصب حتى أقيل منـــه عقـــب خلاف بينه وبين الحاكم التركي مظفر باشا ورفض منصبا آخر عرض عليه. وبعد وفـــاة مظفر باشا عينه الحاكم الجديد التركي يوسف فرنكو باشا في منصب قائمقـــام. وتـــولى شكيب هذه الوظيفة لمدة عامين ونصف العام ثم اضطر إلى الاستقالة منها بسبب اختلاف في الرأي بينه وبين الحاكم التركي.

وعندما اندلعت الحرب التركية الإيطالية كان شكيب وهو في الثانية والأربعـــين من عمره ينشد المغامرة، فاستقر رأيه وقراره على المشاركة شخصيا في الجيش العثمـــاني والانخراط في صفوفه. التحق بمصر رفقه بضعة أنصار من الشوف وانضـــم إلى القـــوات التركية في طبرق على مقربة من الحدود الليبية. وهنا ارتبط بصداقة مع الجنرال أنور باشـــا الذي ظل في معسكره – حسب شهادة شكيب نفسه ثمانية أشهر، وتعرف على كثير من الشخصيات السياسية التي كتب لها فيما بعد أن تلعب دورا هاما. وما من شك كذلك في أن هذه الحقبة الزمنية شهدت انخراطه في اللجنة الشهيرة "الاتحاد والترقي" التي كان الجيش على الخصوص يسندها.

وبعد ضياع ليبيا، كان على تركيا أن تخوض كذلك سنة 1912 / 1913 حرب البلقان التي لم يبق لها في أعقابها بأوربا ولفترة وجيزة عابرة سوى مقاطعة "تراس" الشرقية. سافر شكيب أرسلان في ذلك الوقت إلى القسطنطينية على رأس وفد من "الهلال الأحمر المصري" لتقديم معونة مادية إلى مسلمي تركيا.

وبعد مدة من تألق شخصية الأمير الدرزي بفضل مبادراته والمهام التي كلف بها انتخب نائبا برلمانيا عن مقاطعة حوران في برلمان تركيا وقد دامت نيابته البرلمانية هذه حتى سنة 1918 وكانت تلك هي الفترة التي دخل فيها الساحة السياسية مع استمراره في بذل نشاط جبار كصحافي. ولطالما تدخل على منبر البرلمان العثماني ليبرهن بالخصوص على ضرورة قيام اتحاد حميمي بين الأتراك والعرب. وقد جند قلمه للدفاع عن أفكاره فعكف على لفت الأنظار إلى مخاطر هوة لا يمكن إلا أن تخدم مصالح السياسة الغربية فيما لو ازدادت اتساعا بين الأتراك والعرب.

وفي السنة الموالية، اندلعت الحرب في أوربا، وسرعان ما وقفت تركيا بجانب الإمبراطوريات المركزية. ومنذ بداية النزاع أراد شكيب أرسلان أن يشارك بنفسه فيه إذا ما صدقنا خبرا أورده "وايدمر" وإن كان الخبر لا يمكن الاعتماد عليه حسب الظاهر ومفاده أن الأمير انطلق في الحملة لمهاجمة قناة السويس على رأس تشكيلة من 150 رجلا، ولكنه وصل بعد فوات الأوان إذ أن القوات التركية كانت قد انسحبت من المنطقة وتراجعت" ثم أنه على ما قيل كلفته حكومة القسطنطينية بتجنيد فيلق في لبنان من المتطوعين للمشاركة في الدفاع عن البلد فقام شكيب بحشد حوالي عشرة آلاف درزي، وإن كان هذا العدد قليل الاحتمال. ولكننا نجهل كيف استخدمت تركيا هذا الفيلق وقد حدث ذلك في وقت كان جمال باشا يمارس سياسة من الرعب والترهيب في سوريا. وقال وايدمر "إن الأمير سعى جهده مدة عامين في سوريا للتخفيف من الويلات التي تسببت فيها الحرب ولصنع الجميل إزاء مواطنيه. ولكنه عاد إلى القسطنطينية بعد نشوب خلاف بينه وبين جمال باشا الذي أراد استعمال العنف والبطش بالسكان. وذلك لرفع شكوى

ضد أساليب الحاكم التركي التي من شأنها أن تزيد في إثارة الحقد والبغضاء بين العـــرب والأتراك".

جدد شكيب أرسلان علاقاته في القسطنطينية مع أنور باشا الذي أوفده في 1917 في مهمة إلى برلين. وكانت تلك أول رحلة يقوم بها الأمير اللبناني إلى ألمانيا. وعاد إليها في السنة الموالية ناقلا ومؤيدا وجهة نظر الباب العالي من خلاف نشب بين ألمانيـــا وتركيـــا بشأن القوقاز والأسطول الروسي في البحر الأسود. وعلم في برلين بانتصار الحلفاء وعقـد الصلح. وكان في مقدوره أن يعود إلى المشرق في ذلك الوقت ولكنه لم يفعل، بل ســـافر إلى بيرن – عاصمة سويسرة حيث قضى سنة 1919 في زيارة هذا البلد وفي ســـنة 1920 توجه إلى ميونيخ ثم إلى برلين مرة أخرى. وفي وقت لاحق من تلك السنة رافق أنور باشـا إلى موسكو فأقام فيها أسبوعين ثم عاد إلى ألمانيا ثانية في مطلع يوليو 1921. و لم يعد هناك برلمان في القسطنطينية لكن الجمعية العامة الكبرى في أنقرة كانت قد وضعـــت الأســـس للدولة التركية الوطنية الجديدة التي تم الاعتراف بها اعترافا كليا عقب الكفاح الظافر ضـد اليونان في معاهدة لوزان التي عقدت بتاريخ 23 يوليو 1923.

وانطلاقا من نهاية الحرب العالمية 1914 – 1918 دشن الأمير شـــكيب أرســـلان الدور الذي ما فتئ يضطلع به حتى نشوب الحرب العالمية الثانية وأصبح ذلـــك الرجـــل السياسي المحنك المستقر في أوربا. وهو الذي غادر بلاده سنة 1916 و لم يعد إليه من جديد إلا في سنة 1937 عقب غياب عنه دام 20 سنة وزيادة.وبحث له عن دار إقامة مســـتقرة فاختار سويسرا وأقام بمدينة لوزان أولا ثم انتقل إلى جنيف عندما أخذت عصبـــة الأمـــم تعقد اجتماعاتها في تلك المدينة.

ومن دور إقاماته المتعاقبة في سويسرا أو ألمانيا خلال السنوات التي أعقبت نهايـــة الحرب العالمية الأولى كان يتابع بكل اهتمام وعناية الأحداث التي كانت بلاده مســـرحا لها. ولا نقف كثيرا عند هذه الأحداث. وحسبنا أن نذكر منها بجلاء تركيا عن ســـوريا سنة 1918 (أكتوبر) ومرابطة القوات الفرنسية في المنطقة البحرية من البلد، وتظـــاهرات

الإمبريالية العربية التي أصدرها شريف مكة – حسين – والدور الذي قام به نجله الأمير فيصل الذي انتحل لنفسه في مؤتمر السلام بباريس صبغة المفوض الرسمي على سوريا، ودافع عن مطالبه، ثم عاد إلى دمشق لينادي به فيها ملكا على سوريا في 7 مارس 1920. وجاءت معاهدة – سيفر– (Sèvres) المبرمة في 10 أغسطس من السنة نفسها لتفصل سوريا نهائيا عن الإمبراطورية التركية السابقة وتخضع المشرق لوصاية دولة منتدبة هي فرنسا. واقتطعت سوريا من التراب الفلسطيني الذي وضع تحت انتداب بريطانيا. وسرعان أيضا ما رسمت الحدود الفاصلة بين تركيا وسوريا بموجب اتفاق أنقرة المبرم في 20 أكتوبر 1921، بينما انسحبت الحاميات العسكرية الفرنسية من – سيليسيا (مقاطعة تركية) وقامت فرنسا ضمن الحدود السورية الجديدة بتنظيم كونفدرالية تجمع دولا صغيرة، ثم ما لبثت تدخل تعديلات على هذا الصرح إلى أن أفلت من وصايتها نهائيا.

وفي مطلع سنة 1921، اجتمع مؤتمرسوري فلسطيني في جنيف لضبط حصيلة المطالب الوطنية في البلدين الواقعين تحت الانتداب، ومحاولة جعلها تؤخذ بعين الاعتبار من جانب المؤسسة الدولية التي أنشئت بموجب المعاهدة. وشهدت جنيف بهذه المناسبة توافد عدد كبير من السياسيين العرب من المشرق، وما كان لشكيب أرسلان إلا أن يكون في استقبالهم وإرشادهم وهو الذي صارت له خبرة بشؤون أوربا وبالطرق الديبلوماسية الأوربية.

غير أن شكيب أرسلان قام في الوقت ذاته برحلات عديدة داخل أوربا من ذلك أنه زار برلين في شهر فبراير 1921 حيث عين رئيسا لناد عربي يضم المشارقة المقيمين بالعاصمة الألمانية من مسلمين عرب وأتراك وفارسيين وهنود وألبانيين.

وفي شهر مايو 1922 كان في روما حيث ترأس مؤتمرا عقده "الاتحاد الإسلامي للشعوب المضطهدة" وسرعان ما انتدبه المؤتمر السوري الفلسطيني الذي عقد بالقاهرة ليكون عضوا في الوفد العربي لدى جمعية الأمم. هذا الوفد الذي يوجد مقره بجنيف يترأسه لبناني مسيحي ثري يقيم في سانت مورميتز هو الأمير ميشال لطف الله الذي لا

يقدم جنيف إلا من حين لآخر ويتكفل بجميع مصاريف البعثة، ومن المندوبين الآخريـــن المسلم الحلبي إحسان الجابري واللبناني رياض الصلح.

وفي سنة 1923، سافر شكيب أرسلان إلى أسطنبول بغرض تأسيس وقيادة جبهـة تركية عربية تعمل على طرد الفرنسيين من سوريا. لكن استقبال أنقرة لهذا المشروع جعله يتخلى عن كل وهم في هذا الصدد. ولدى عودته إلى سويسرا كان يبدو وكأنـه صـار الرجل الذي وضع فيه خيديو مصر عباس حلمي كل ثقته.

وفي نوفمبر 1924، قام برحلة جديدة إلى برلين حيث نزل ضيفا علـى رجـل سوري هو الدكتور – بيدا – الذي استقر بالعاصمة الألمانية وفتـح فيـها دارا للنشـر وتسويق الأسطوانات العربية. كما لازم فيها سوريا آخرا يمارس مهنة طب الأسنان هـو الدكتور زكي كرام. ولا يعسر على المرء التنبؤ بالمساعي التي قام بها الأمير الدرزي خلال إقامته في برلين لدى السلطات الألمانية. على أن هذه المساعي يسرها له صديقه الكونـت فون ريفنتلوف (Von Reventlow) الذي يتمتع بنفوذ. وكان السوريون المقيمون فـي برلين يحيطونه مـن جانبهم بكل رعاية وتقدير. وقبل رحيله فـي 15 ديسـمبر 1924 أقاموا له حفل استقبال وتكريم في "رنغولد (Rheingold)حضرها ستريسـمان (Stresman) الجنرال فون سـيكت (Von Seekt) والكولونيـل فـون كزيلانـدر (Vonxylander) والمتخصص الألماني فـي الشؤون الشرقية المعروف الدكتور كامب فمير (Kampffmeys) الذي ألقى خطابا بالمناسبة.

غادر شكيب أرسلان ألمانيا فأقام مدة قصيرة في سويسرا ثم سـافر إلى تركيـا فمكث فيها مدة بمدينة (مرسين) حيث كان على اتصال باللجنتين الثوريتين العربيتـين في حلب ودمشق.

وعاد شكيب أرسلان مرة أخرى إلى سويسرا في شهر سبتمبر الموالي وما لبـث أن تلقى دعوة للمشاركة في المحاولات الفرنسية السورية التي جرت في باريس والهادفـة إلى وضع حد لحالة التمرد والثورة المستفحلة في سوريا. وتوجه إلى العاصمة الفرنسية رفقة

ميشال لطف الله وإحسان الجابري وأجرى هناك مباحثات مع المحافظ السامي السيد "جوفنال"(De Jouvenel) وكانت النتائج سلبية وانتقل مرة أخرى إلى برلين في نهاية سنة 1925 ومن هناك بعث إلى مواطنه الدرزي السلطان الأطرش برسالة نارية أوصاه فيها على الخصوص بعدم إلقاء السلاح قبل تحقيق استقلال سوريا.

ليس من الميسور الإلمام بتفاصيل النشاط الدؤوب الذي قام به شكيب أرسلان فيما بين 1926 و1929. وحسبنا أن نذكر مشاركته الفعلية في مؤتمر سوريي أمريكا الذي عقد في مدينة "ديتروات"(Détroit) بولاية ميشيجان(Michigam) من 15 إلى 22 يناير 1927. فأقام بالمناسبة خمسة أشهر في الولايات المتحدة وقد انتهز رئيس الوفد السوري الفلسطيني في سويسرا ميشال لطف الله فرصة غيابه ليسحب منه ومن إحسان الجابري ورياض الصلح مهمة تمثيل هذه اللجنة في عصبة الأمم.

توجه شكيب أرسلان في نهاية سنة 1927 إلى بروكسيل ليشارك في مؤتمر "الرابطة الدولية لمكافحة الإمبريالية" ودخل في الوقت ذاته في مجادلة صحفية مع الأمير عبد الله أمير شرق الأردن ودافع عن نفسه من الاتهامات التي كان منتقدوه والمشنعون عليه في الشرق يوجهونها إليه.

وفي 17 فبراير 1926 صدر قرار بالعفو العام في سوريا واستثني منه شكيب أرسلان وأخوه عادل أرسلان وإحسان الجابري.

وعلى الرغم من إقدام اللجنة التنفيذية السورية الفلسطينية على سحب مهمة الأمير شكيب أرسلان إلا أنه استمر في أداء عمله لدى عصبة الأمم من ذلك أنه وجه في 8 مارس 1928 إلى رئيس مجلس المنظمة الدولية وأعضائها رسالة مطولة وقعها معه رياض الصلح ولخص فيها التطلعات السورية بعبارات تتصف بشيء من الرزانة والاعتدال فيما يخص فرنسا. وفي الوقت ذاته أي في ربيع سنة 1928، أسس شكيب أرسلان في جنيف"مكتب إعلام البلدان الإسلامية".

وقرر الأمير سنة 1929 أداء فريضة الحج، وتلك كانت حجته الأولى، فمر ببـور سعيد في 11 مايو وأدلى قبل وصوله الحجاز بتصريح للصحافيين المصريين كان له صـدى بعيد، نصح فيه الشعوب العربية بالاتحاد والوئام ودعا إلى تحقيق المثـل الأعلـى العـربي المشترك وتكريس الجهد لخدمته .

وبعد أن استوفى شكيب أرسلان شعائر الحج قصد الطائف لقضاء عطلة الصيـف فترل ضيفا على الملك ابن سعود واستطاع شكيب أرسلان – حسب ما أورده كـاتب سيرته "وايدمر" آنف الذكر- أن يسوي بعض الخلافات التي كانت قائمة بـين الملـك السعودي والإمام يحي اليمني بصدد السيادة على منطقة العسير. غير أن هذه المحـاولات لم تمنع التراع من التحول بعد بضع سنوات إلى صراع بين السعودية واليمن والانتهاء بهزيمـة الإمام يحي وتوقيعه معاهدة الطائف في 20 مايو 1934.

وقد يكون الأمير شكيب أرسلان حسب المصدر نفسه قد تدخل وتوسط خـلال الرحلة نفسها في التراع الذي كان قائما بين ابن السعود وفيصل العراق، قبل اللقاء الـذي كان سيجمع بينهما بتاريخ 22 فبراير 1930 على مـتن المركـب الشـراعي البريطـاني "لوبان"(Lupin) قرب رأس التنورة في الخليج الفارسي.

وتبين المعلومات المذكورة سابقا، على اختصارها، أن شكيب أرسلان كـان لا يقصر نشاطه في تلك الحقبة من الزمن على الدفاع عن مصالح سوريا وحدها. فقد وسـع الأمير الدرزي دائرة عمله وأفق نشاطه ليسخر كلمته وقلمه لخدمـة القوميـة العربيـة والوحدة العربية ومحاولة القيام بدور الحكم والسعي إلى إزالة دواعي الحيطة والارتياب التي كان البعض يشعرون بها إزاءه في المشرق عن طريق إظهاره استقامة إسلامية مثالية. وهـو الوقت الذي أصبحت فيه علاقاته مع إيطاليا متواصلة والوقت الذي أخذ فيـه بتشـجيع التراعات الوطنية التي بدأت تظهر بين مسلمي شمال إفريقيا.

تميزت سنة 1930 في حياة شكيب أرسلان الفكرية بحدثين جديدين بارزين همـا تأسيس مجلته "الأمة العربية" بالتعاون مع إحسان الجابري، وسفره إلى إسبانيا ثم إلى منطقة

النفوذ الإسباني في المغرب الأقصى. ظهرت الملزمة الأولى من "الأمة العربية" في جنيف وفي شهر مارس 1930. وكانت هذه المجلة محررة باللغة الفرنسية مما كانت له دلالته البالغة. ذلك أن استعماله هذه اللغة لا يهدف إلى تأمين إمكانيات انتشار المجلة في الأوساط السياسية بأوربا فحسب. بل المقصود منه كذلك هو إيصالها بصورة مباشرة إلى بعض القراء المسلمين الذين لا يحسنون القراءة باللغة العربية لكي يتابعوا الصحافة المحررة بهذه اللغة.

قدمت "الأمة العربية" التي تولت طباعتها دار فرنسية في بلدة "آنماس" (Annemasse) على أبواب مدينة جنيف، منذ عددها الأول على أنها مجلة شهرية، والحال أنها لم تصدر في الواقع سوى مرتين أو ثلاث مرات في السنة، هذا إذا لم تنقطع عن الصدور مدة أطول. فهي مجلة "سياسية وأدبية واقتصادية واجتماعية، وتسمي نفسها" لسان الوفد السوري الفلسطيني لدى عصبة الأمم، وتخدم مصالح البلدان العربية ومصالح المشرق" ومن أهداف المجلة حسب ما جاء في مقدمة تمهيدية لها" التعريف بالأمة العربية على ما هي عليه الإعراب للعالم الغربي عن مطالب الأمة التي أشعت بنور حضارتها ظلمات القرون الوسطى وقامت على أنقاض العالم الإغريقي والروماني وكانت من أكبر عوامل نهضة العالم الحديث".

واهتم شكيب أرسلان منذ بضع سنوات على الرغم من انشغالاته السورية، بالاطلاع على السياسة التي تسلكها فرنسا في شمال إفريقيا، والسياسة التي تنهجها إيطاليا في ليبيا واستطاع أن يرتبط بعلاقات مع بعض المغاربة الفرنسيي الثقافة الذين يتابعون دراساتهم في باريس ومن هؤلاء المغاربة من سافر إلى سويسرا للاجتماع بالأمير الدرزي والإعراب له عن مشاعر الإعجاب به. وإلى هؤلاء كان توجهه عندما قرر في صائفة سنة 1930، وربما كان ذلك باقتراح منهم القيام برحلة إلى إسبانيا ومنها إلى المغرب الأقصى.

كان شكيب أرسلان يحن إلى إسبانيا منذ زمن طويل وما من مثقـــف عـــربي لا يشعر بالاعتزاز إزاء الماضي الإسلامي الذي شهده هذا البلد الذي يمثل بالنسبة إلى المشرق ضربا من "الفردوس المفقود" والذي ما فتئ تاريخه السياسي والأدبي يستلهم منذ قرن مـــن الزمن كثيرا من الأدباء والكتاب في مصر والمشرق عامة ومنذ ذلك العهد أخذ الأمير يفكر في كتابه تاريخ مستفيد لإسبانيا الإسلامية. وفعلا فقد ظهرت ثلاثة مجلدات من بين عشرة مجلدات من هذا الكتاب في القاهرة. وكان آخرها في سنة 1939 تحت عنـــوان "الحلـــل السندسية في الأخبار الأندلسية" وقد جمع فيه معلومات تاريخية وجغرافية قليلة التمحيـــص استقاها بالخصوص من مؤلفات "دوزي"(Dozy) ودليل بايكر(Baedeker).

وعن رحلة شكيب أرسلان إلى إسبانيا والمغرب الأقصى يمكننـــا أن نرجـــع إلى المعلومات التي قدمها هو نفسه في مقدمة كتاب ألفه عن تاريخ الفتوحات العربية في فرنسا وحوض البحر الأبيض المتوسط وقد غادر لوزان في 18 يونيـــو 1930 قـــاصدا بـــاريس واستقبله لدى نزوله من القطار الطالبان المغربيان أحمد بلفريج ومحمد الفاسي وأقام مـــدة خمسة أيام رفقتهما بالعاصمة الفرنسية وتردد على مطعم جامع باريس حيث احتفى بـــه الطلبة السوريون، واقتنى كتب مكتبة بول جوتنر"(Paul Guithner) الشرقية ولمـــا كـــان الشابان المغربيان ما يزالان مقيمين بفرنسا لاجتياز امتحاناهما، فقد ضرب لهما موعـدا في مدريد التي التحق بها على الفور متوقفا في تولوز و"كركاسون". والتحق بـــه الدليـــلان المتطوعان في مدريد فزار معهما الإسكوريال" فمكث مدة يطلع في مكتبة هذا الدير علـى المخطوطات العربية وبعد أن توقف بعدة مدن أندلسية ولا سيما قرطبة، أبحر إلى طنجـــة يوم 9 أغسكس 1930. وما كان له إلا أن يمر بها مر الكرام لأنه ما إن نزل من الســـفينة حتى أبلغ قرار بالنفي والإبعاد من السلطات الشريفية فتوجه إلى تطوان حيث اشترك مـــع الوطني المغربي عبد السلام بن نونة فنظم الفرع المغربي للجنة السورية الفلســـطينية الـــتي أصبحت تعرف منذ ذلك الوقت "باللجنة السورية الفلسطينية المغربية".

ويبدو أن بضعة الأيام التي قضاها شكيب أرسلان في تطوان – إذ غادر المغرب في19 أغسطس 1930 – بدعوى إلقاء محاضرات عن دور الأندلس في بناء الحضارة الإسلامية قد مكنته بالخصوص من الاتصال، تحت رقابة متسامحة أو متعاطفة من السلطات الإسبانية ببعض المغاربة الذين قد يبثون في البلد روح العروبة ويبشرون بالقومية العربية ويجعل منهم أبطالا للحركة الوطنية في شمال إفريقيا. ومهما يكن من أمر، فمنذ ذلك الوقت، كان الاتصال مكفولا بصورة أوثق وعلى نحو دائم بين شكيب أرسلان ومواطن العمل السياسي السري في تطوان والرباط وفاس التي كان يلهم منها وينسق الحملات الموجهة ضد فرنسا ولا سيما بمناسبة صدور الظهير الشريفي الشهير بشأن القضاء البربري في 16 يونيو 1930.

عاد شكيب أرسلان إلى لوزان في ربيع سنة 1931 وقد ثارت ثائرته في الوقت على المعاملات اللاإنسانية التي كان الإيطاليون يعاملون بها مسلمي ليبيا. وقد سبق له أن أشار في ديسمبر من سنة 1930 إلى ما قام به الإيطاليون من حشد للسكان الليبيين الرحل في مقاطعتة برقة الشرقية (الجبل الأخضر) وحشرهم للإقامة في بعض نقاط من الساحل الشمال الشرقي لليبيا، وأدان هذا العمل إدانة شديدة في مجلة الأمة العربية، وفي حدود ذلك العهد بالذات كتب شكيب أرسلان بحثا في غاية الغرابة عن الأسباب التي أدت إلى تأخر المسلمين وتقدم غيرهم من الشعوب الأخرى. وقد نال هذا البحث نجاحا كبيرا في جميع أنحاء العالم الإسلامي وإقبالا عليه لا نظير له كما أعيد طبعه في القاهرة سنة 1939 وقدم فيه شكيب أرسلان بطريقته الخاصة أي بلهجة طابعها العنف الشديد جملة من العلل وضروب علاجها، رجاء إثارة الحماس والنخوة في صدور قرائه وقد حرر هذا الكتيب بناء على طلب من الشيخ رشيد رضا مدير مجلة "المنار" المصرية وقد نشر الكتيب بادئ ذي بدء في شكل مقالات بالمجلة المذكورة. وألح الكاتب في دفاعه الطويل الذي أدرجه في الكتيب لفائدة المثل الأعلى الوطني للعرب "على اليابان بصورة خاصة فقدمه كمثل وقدوة

لجميع المسلمين مبينا أن قوة اليابانيين ترجع في أساسها إلى وطنيتهم الحادة وحبهم الشديد لوطنهم وتمسكهم القوي بلغتهم.

وفي خلال صائفة 1931 توجه شكيب أرسلان إلى هولندا بمناسبة المؤتمر الـــدولي للمستشرقين الذي عقد في السيد "والذي ألقى فيه مداخلة علمية".

وفي السنة نفسها استقر الأمير الذي أخذت صحته تتوعك وهو في الثانية والستين من عمره بمدينة جنيف رفقة زوجته الشركسية وبنتيه وابنة غالب "الطالب الذي يســتعين به للمناسبة ككاتب" ولكنه لم يكف مع ذلك عن القيام برحلات متكررة إلى برلين.

وفي نهاية سنة 1933 وكامل سنة 1934 قام الأمير الدرزي بنشاط آخر حثيـــث فسافر إلى أوربا الوسطى وإيطاليا والحجاز.

وكان شكيب أرسلان قد قام بزيارة قصيرة قبل سنتين إلى البلقان مكنته مـــن عقد صلات مع بعض الشخصيات الإسلامية في البوسنة وبدعوة من هذه الشخصيات قام في شتاء سنة 1933 / 1934 برحلة جديدة إلى يوغوسلافيا حيث زار عقب وصولـه في 26 ديسمبر الجاليات الإسلامية المقيمة في عدة مدن بوسنية. واستقبل في ســـراييفوا بنـــادي المدينة الإسلامي حيث ألقي محاضرة، ووصل إلى بلغراد يوم 23 يناير 1934 فترل ضيـــف على رئيس الجماعة الإسلامية في يوغوسلافيا "رئيس العلماء ماجلايليتش" وانتقـــل مـــن بلغراد إلى المجر فأقام مدة في بودابست ثم التحق بروما التي مكث بها خمسة عشر يوما عاد بعدها إلى جنيف في نهاية شهر فبراير 1934 وقد خص الأمير الدرزي باستقبال حـــار في العاصمة الإيطالية حسب ما أوردته "الشرق الحديث" (أورياني موديرنو) (1934 الصفحة 148) واجتمع بالمركيز "تيودولي" رئيس اللجنة الدائمة للتفويضات بعصبة الأمـــم كمـــا استقبله "ميسولوني" مرتين.

وما إن انقضت بضعة أسابيع حتى توجه شكيب أرسلان فجأة إلى المشرق فـــترل بمطار الإسكندرية يوم 11 أبريل 1934. وفي الشهر الموالي خصصـــت مجلـــة "أوريـــانتي موديرنو" (الشرق الحديث) مقالا لرحلة الأمير الدرزي إلى الجزيرة العربية جاء فيه علـــى

الخصوص: قرر المؤتمر الإسلامي العام الذي عقد بالقدس إرسال وفد إلى مكة لاقتراح وساطة في النزاع المسلح الذي نشب بين الملك ابن السعود والإمام يحيى ملك اليمن. وكان هذا الوفد الذي ترأسه مفتي القدس أمين الحسيني رئيس المجلس الفلسطيني الإسلامي الأعلى يتألف من محمد علي علوبة باشا وزير مصري سابق و إلياسي السوري هاشم باي الأتاسي والأمير شكيب أرسلان. وقد غادر الوفد ميناء السويس يوم 13 أبريل متوجها إلى جدة التي وصلها في 16 منه، وعلى متن سيارة قصد الوفد مكة المكرمة حيث استقبله الملك ابن السعود غداة وصوله مكة. وظل الوفد بالحجاز حتى 12 يونيو الذي غادرفيه ثلاثة من أعضائه ومنهم شكيب أرسلان مبحرين من جدة إلى الحديدة فصنعاء. وفي مطلع شهر يوليو الموالي تحول الأمير الدرزي إلى فلسطين غير أنه ما لبث أن اجبر على مغادرتها إلى أوربا بعد أن استدعاه المحافظ البريطاني السامي في القدس السير أرثور وانشكوب " الذي أبلغه بأن وجوده في فلسطين غير مرغوب فيه.

وفيما عدا هذه الرواية عن سفر شكيب أرسلان إلى المشرق شاعت معلومات أخرى ربما كانت مغرضة، وقدمت شكيب أرسلان في صورة من يعاني حالة مادية عسيرة في ذلك العهد أحوجته إلى أموال كافية لإصدار مجلته "الأمة العربية" وأعرب عن النية في الاستقرار بالحجاز بدلا من مصر التي كانت محظورة عليه بقرار شخصي من الملك فؤاد. وقيل أن الحكومة المصرية رفضت له طلبا بالاستقرار في القاهرة كان قد تقدم به بحجة غلاء المعيشة في سويسرا والحاجة إلى تعليم أبنائه ورغبته في قضاء بقية عمره في دار الإسلام. أما توسطه في النزاع بين الحجاز واليمن فقد كان – حسب هذه الرواية – دون جدوى لظهور الملك ابن السعود بمظهر المعارض لكل مسعى في هذا الصدد.

عاد شكيب أرسلان في سبتمبر 1934 إلى جنيف، ثم توجه إلى برلين بعد شهرين لقضاء بضعة أسابيع. وفي العاصمة الألمانية انخرط في الاتحاد الدولي لزعماء الحركات الوطنية الذي كان يرأسه ألماني هو الدكتور "هانس كيلير".

و لم يكن نشاط شكيب أرسلان ليخفت أو يتوانى سنة 1935 لكن نجمه أخـذ في الأفول على ما يبدو في المشرق العربي. ذلك أن مقالا نشره في مجلة " الأمـة العربيـة " الصادرة في نوفمبر ديسمبر 1934 بشأن النزاع الإيطالي الحبشي ووقف فيه موقف المنـاصر لإيطاليا أثار نوعا من الدهشة والاستغراب في الصحافة المشرقية. وفي 13 يناير 1935 رد في جريدة "الجهاد" على تلميحات وتعريضات الصحف التي كانت تنعته بالمؤيد للاستـعمار الإيطالي وظل على اتصال وثيق برئيسي الحركة الوطنية في منطقتي المغرب الأقصى اللذيـن كان يستقبلهما باستمرار في جنيف. وفي شهر فبراير 1935 طلب من مراسليه المغربيـين في باريس موافاته بمعلومات عن الصدى الذي تركه في فرنسا والمغـرب الأقصـى مخطـط الإصلاحات المغربية" الذي سبق أن نشر قبل أسابيع من ذلك التاريخ. وعند وفاة الزعيـم الوطني في تطوان السيد عبد السلام بن نونة أرسل برقية تعزية قرئت على نطاق واسـع في تلك المدينة يوم أول مارس 1935 وخلال تلك السنة أيضا (سنة 1935) امتد نفوذ شكيب أرسلان إلى الجزائر وكان له تأثير خاص في أوساط المسلمين الجزائريين وكـان يراسـل باستمرار الشيخ عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والشـيخ الطيب العقبي والسيد أحمد توفيق المدني التونسي الدستوري الحزب المبعد مـن تونـس والذي اتخذ من الجزائر دار إقامة له. لكن الشخصية التي كانت أكثر تلقيا لتعليماته هـو مصالي الحاج زعيم الحركة الوطنية العمالية الكبرى "نجم شمال إفريقيا" التي تأسسـت في باريس سنة 1926 وتم حلها سنة 1937. التي أسس فيها مصالي حزبه الوطـني الجديـد "حزب الشعب الجزائري "وكان لسان "نجم شمال إفريقيا" هي جريدة الأمة الصادرة باللغة الفرنسية في باريس والتي كانت مقالاتها غالبا ما تصرح بأنها مستلهمة بصورة مباشرة من شكيب أرسلان.

مرت شهور وما زالت تهجمات بعض الصحف العربية الصادرة في المشرق علـى موقف شكيب أرسلان من إيطاليا الذي تنعت تلك الصحف بالموقف الغامض والمبـهم تزداد حدة. ولكن شكيب أرسلان رد على تلك التهجمات دون كلل أو ملل بمرافعـات

ومدافعات مطــولة نشرتها عــلى الخصوص صحيفة الجمعية العربية" الصــادرة فــي القدس وقامت مجلة أوريانتي موديرنو" الإيطالية بتلخيص ثلاث مقالات نشرتها الصحيفــة القدسية المذكورة.

وفي 19 أبريل 1935، عادت صحيفتان فلسطينيتان هما "فلســطين" و"الجمعيــة الإسلامية" إلى مهاجمة شكيب أرسلان فنشرتا نسخة مصورة من رسالة مؤرخة في جنيف يوم 20 فبراير كان شكيب أرسلان قد أرسلها إلى مفتي القدس أمين الحسيني وبواســطة ثلاث برقيات متتابعة أرسلت من جنيف إلى القاهرة يومي 23 و24 أبريل نــدد شــكيب أرسلان على ملأ من الرأي العام العربي بالطابع المزور أو المزيف لتلك الرسالة التي يكــون الأمير الدرزي – في زعمهم – قد ارتبط بالتزامات إزاء إيطاليا ووعد ميسولوني بالدعايــة له في البلدان العربية.

وفي سنة 1935 أيضا عقد بجنيف "مؤتمر مسلمي أوربا" الــذي كــان شــكيب أرسلان يتمنى انعقاده منذ زمن بعيد، دون أن يجد الأموال اللازمة لتنظيمه. وقد افتتــح المؤتمر في جنيف يوم 12 سبتمبر 1935. وتحدثت عنه في الشهر الموالي مجلــة "أوريــانتي موديرنو" استنادا إلى مقالات خصصتها للمؤتمر جريدة "الأيام" العربية الصادرة في دمشق. وكان عدد المؤتمرين يفوق الستين منهم ممثلون من الجاليات الإسلامية في أوربا من البوسنة وبولندا والمجر وبريطانيا وهولندا. وحضر المؤتمر أيضا بعض الطلاب المسلمين المنتمين أصلا إلى شمال إفريقيا ومصر وسوريا والعراق والهند، كما حضرته المستشرقة الإيطالية الســيدة "فيكشيا فاغليري"(Veccia Vaglieri) وجاء في الخطاب الافتتاحي الذي ألقــاه شــكيب أرسلان، بعد توجيه عبارات الشكر إلى الحكومة السويسرية على كرم الضيافة، أن للمؤتمر أهدافا دينية وثقافية واقتصادية لا سياسية. ونوه بالإسلام وامتدحه مع تلميحات لا تكــاد تخفى على أحد إلى الوحدة العربية والوصاية المفروضة على بعض الأقطار العربيــة غــير المستقلة. ثم تحدث الدكتور علي زكي، وهو مصري مقيم بجنيف وعلى اتصــال يومــي بالأمير شكيب أرسلان، فتوجه بالشكر إلى الأمير الدرزي معيدا إلى الذاكــرة بنشــاطه

الطويل وكفاحه المرير طوال خمسين سنة في سبيل القضية العربية والإســـلام. وأعقبــت جلسة الافتتاح هذه بعض جلسات عمل غامضة مشوشة وذات طابع شكلي.

و لم يكن شكيب أرسلان بالذي ينخدع أو ينساق وراء الأوهام بشأن مـــدى نجاح هذا المؤتمر. ذلك أن رسالة أرسلها في 12 أكتوبر الموالي إلى مراسل مقيـــم بمدينـــة الجزائر كانت ذات لهجة مشوبة بنوع من التقزز فقد صرح أن إشاعات مغرضة أخـــذت تنتشر في المشرق العربي عقب معلومات وصلت إلى المشرق بصدد المؤتمر وتتهمه بأنــه لا هدف له سوى الدعاية لإيطاليا وإسبانيا.

لم يقتصر نشاط شكيب أرسلان خلال تلك السنة أي سنة 1935 علـــى تنظيـــم مؤتمر مسلمي أوربا ورئاسته فحسب، ومع ذلك فقد كانت صحته – كما يعترف هـــو نفسه في رسائله – آخذة في التدهور والضعف. وكانت أزمات داء الحصاة غالبا ما تجبره على لزوم البيت. لكن كاتبا كان يقف إلى جنبه على الدوام لتحرير ما عليه من رسائل أو مقالات صحفية إلى جانب الجزء الأكبر من مادة مجلته "الأمة العربية" وكان نقل الماريشال "ليوتي" إلى الرباط في ذلك الوقت فرصة له للتعليق على الخطاب الذي ألقـــاه بالمناســبة السيد لويس مارين" وزير الدولة آنذاك تعليقا إيجابيا. وكان شـــكيب أرســـلان كثـــير الأعراب منذ مدة عن إعجابه بعبقرية الماريشال الفرنسي. وقد سبق له أن نوه في عـــدد مايو / يونيو 1931 من مجلته "الأمة العربية" بمن كان ينعته "بأعظم وأدهـــى اســتعماري فرنسي".

أولى شكيب أرسلان جل اهتمامه في السنة الموالية إلى الحركات الوطنيـــة الـــتي كانت تزداد اتساعا في شمال إفريقيا وفي المغرب الأقصى بـــالخصوص وكـــان الزعيـــم الجزائري مصالي الحاج على علاقات يومية في ذلك الوقت مع الكاتب الكبير والمجـــادل السياسي الشهير في جنيف ذاتها حيث كان لاجئا على مقربة منه في أعقاب ما تعرض لـــه من أحكام بالسجن أصدرتها في حقه المحاكم الفرنسية.

كانت سنة 1936 في تاريخ سوريا الحديث فترة اضطرابات وقلاقل وحقبة مفعمة بالأحداث. ذلك أنه عقب الاتفاق الذي حصل في أول مارس بين المحافظ السامي الفرنسي في المشرق و"الكتلة الوطنية السورية" تم إيفاد وفد من ستة أعضاء إلى فرنسا للتفاوض بشأن معاهدة فرنسية سورية أبرمت وتم التوقيع عليها في 22 ديسمبر من السنة نفسها بدمشق. وقبل شهر من ذلك أبرمت معاهدة لبنانية فرنسية وقعت في بيروت بتاريخ 13 نوفمبر 1936 وفي الوقت ذاته أخذت تركيا التي كانت تتابع سير الأحداث ترفع صوتها مطالبة بلواء الاسكندرونة. وقد سبق أن حصل تدخل من السيد "روشتو أراس" في مجلس عصبة الأمم خلال شهر أكتوبر، وإرسال مذكرة رسمية من الحكومة التركية تطالب بإعلان المنطقة أو المقاطعة دولة مستقلة. ووافقت فرنسا في 10 ديسمبر على رفع القضية إلى مجلس عصبة الأمم. واتخذ هذا المجلس قرارا في 26 يناير 1937 يحدد فيه موضوع المفاوضات الواجب إجراؤها بين فرنسا وتركيا. وقد انتهت تلك المفاوضات إلى اتفاقات بين فرنسا وتركيا تم توقيعها في 29 مايو 1937 كما أفضت إلى إقرار مجلس عصبة الأمم القانون التأسيسي التنظيمي الخاص بلواء الإسكندرونة.

وما كان الأمير شكيب أرسلان ليقف موقف المتفرج إزاء هذه الأحداث كلها إلا أنه يبدو وكأنه استبعده قصدا عن مفاوضات باريس المندوبون السوريون الذين كان على رأسهم هاشم الأتاسي. على أن الوفد توجه إلى جنيف عقب التوقيع على البروتوكول، واستقبله شكيب أرسلان، الذي أعرب عن تهانيه للوفد أثناء مأدبة غذاء أقامها له عما توصل إليه من نجاح وأحرزه من نصر كما كان هو أيضا موضع امتنان أعرب له عنه الوفد على لسان أحد أعضائه فارس الخوري الذي اعترف له بجميل المساهمة في تحقيق الوحدة السورية، وأطلق عليه لقب "أب المسلمين".

توجه الأمير شكيب أرسلان في آخر شتاء 1937 إلى باريس حيث أقام بها من 14 إلى 22 فبراير وعاود اتصالاته بالطلبة السوريين وبجالية شمال إفريقيا المقيمة في باريس. وقد أقام له مصالي حفل استقبال. وما من شك في أن الزعيم العربي شكيب أرسلان استغل

فرصة وجوده بباريس ليتفاوض بشأن شروط عودته المحتملة إلى سوريا. وما إن حل شهر مايو حتى حمل الرحالة العربي الكبير أمتعته ليعود هذه المرة إلى وطنه.

كانت عودة الأمير الدرزي إلى المشرق عودة ظافرة. فعند وصوله إلى بيروت في 3 يونيو 1937 على متن الباخرة الإيطالية "إسبيريا"(Esperia) رفقة إحسان الجابري وجد في استقباله عددا كبيرا من الناس منهم نواب برلمانيون من الشوف، ووفود من حلب ودمشق كما أوفد رئيس الجمهورية اللبنانية ورئيس الوزراء رئيسي ديوانهما لاستقبال العائدين على متن الباخرة. وسارع كثير من القادة السياسيين والنواب البرلمانيين إلى الرصيف للمهمة نفسها.

وبعد ظهيرة اليوم الموالي توجه المبعدان السابقان إلى دمشق رفقة نحو مئتين من الأشخاص ينتمي معظمهم إلى أسرة إحسان الجابر. وكان الطريق ابتداء من الدامور مزينا بالأقواس المعشوشبة كما أن بلدية دمشق قامت بتزيين المدينة بالأعلام الوطنية وكان جمهور غفير يقدر بنحو ثلاثة آلاف شخص ينتظرون وصول العائدين من المنفى في ساحة المرجة أمام دار البلدية وتقدم لاستقبال شكيب أرسلان وإحسان الجابري أعضاء الحكومة ورئيس مجلس النواب ووفد من الدروز.

وفي أعقاب حفلات استقبال عديدة في دمشق، توجه شكيب أرسلان وإحسان الجابري في 6 يونيو إلى حلب حيث وجدا نفس الحفاوة والاستقبال الحار. لكن بعض التصريحات غير الحذرة التي أدلى بها الأمير الدرزي سرعان ما أثارت ردود فعل حادة فقد قوبل خطاب ألقاه في مسجد حلب الجامع يوم 11 يونيو بانتقادات مريرة ولا سيما من الصحف المسيحية الناطقة بالفرنسية في سوريا.

ومن 8 إلى 18 سبتمبر من السنة نفسها عقد "مؤتمر للدفاع عن فلسطين" في بلودان المصطاف الصغير القريب من دمشق وعين شكيب أرسلان نائب رئيس هذا المؤتمر(2) وقد ألقى كلمة شرح فيها أفكاره التي يدافع عنها بشأن الوحدة العربية وعلد إلى

شرح الموضوع نفسه في محاضرة ألقاها بدمشق في 20 سبتمبر 1937 ونشرت بعد بضعة أيام في نشرية بعنوان "الوحدة العربية"(3).

وما من نبي تنبأ في قومه – كما يقال – ذلك ان بعض المتاعب وخيبات الأمل دفعت بالأمير شكيب أرسلان إلى مغادرة سوريا وحمل عصا الترحال من جديد فرحل إلى مصر في 17 ديسمبر 1937، غير أن حكومة هذا البلد رفضت منحه تأشيرة الإقامة. وفي شهر أبريل 1938 عاد الزعيم العربي العجوز إلى جنيف لكن الحكومة السورية التي شعرت بأنها مدينة لشكيب أرسلان بمشاعر العرفان والتقدير، عينته في 21 سبتمبر من السنة نفسها مديرا لأكاديمية اللغة العربية في دمشق. وأعلن شكيب أرسلان بعد بضعة أشهر قبوله استلام المنصب الجديد مصرحا اعتزامه التفرغ في المستقبل لدراساته وكتبه وتطليق السياسة المناضلة أو النضال السياسي. وقامت الحكومة المصرية التي سبق أن حظرت على الأمير الدرزي دخول مصر منذ ثمان وعشرين سنة بمبادرة الترخيص له بالإقامة في مصر دون قيد أو شرط.

وفي 28 فبراير 1939. نزل شكيب أرسلان بالإسكندرية فلقي فيها وفي القاهرة بعدها أحر استقبال وأكرم ضيافة. وأقام بمصر حتى منتصف يوليو 1939. وقد عنيت الصحف المصرية اليومية منها والدورية الصادرة باللغة العربية عناية خاصة بنشاطه في العاصمة المصرية والدعوات العديدة التي حظي بها هناك لكن الأسابيع مرت دون أن تبدو على شكيب أرسلان أية عجلة لمغادرة مصر والالتحاق بمنصبه الجديد في دمشق. وقد تذرع لتبرير مقامه الطويل بالقاهرة، بحجج انشغالاته الشخصية المتنوعة ولاسيما إعادة طبع كثير من كتبه: وأعرب عن عزمه كذلك على نشر مجلته "الأمة العربية في مصر باللغتين العربية والفرنسية واجتهد أيضا لإحياء مشروعه القديم المتمثل في تأسيس مؤتمر عربي بمكة المكرمة عند قيامه بالحج إلى البقاع المقدسة. ولكنه سرعان ما أبحر فجأة ليعود مرة أخرى إلى أوربا في 13 يوليوز 1939 معلنا أنه ذاهب للدفاع عن قضية سوريا وفلسطين. نزل بإيطاليا وتوجه إلى روما حيث أقام أسبوعين أو ثلاثة أسابيع ربما للقيام

بمهمة سرية كلفته بها الحكومة المصرية لدى الحكومة الفاشية. ثم التحق بجنيف ومنها تـتبع فترة التوتر التي سبقت غزو بولندا ودخول فرنسا الحرب ومعها بريطانيا ضد النازية.

لم يهدأ نشاط شكيب أرسلان طوال الحرب العالمية الجديدة، بـــل ازداد حـــدة وتوقدا ولا ينتقص شيئا من طابع هذه الدراسة الموضوعي إذا أكدنا أن شكيب أرســـلان تلقى منذ اندلاع الحرب تعليمات دقيقة من ألمانيا. وكانت هذه التعليمات تأتيه في رسائل أو عن طريق مبعوثين. وكانت تنقل إليه شفويا في برلين ذاتها، حيث قدم إليها من جنيـف في شهر سبتمبر 1939. وفي 20 من الشهر نفسه أعلن راديو برلين بعبارات حـــارة عـــن وصوله إلى العاصمة الألمانية حيث سيقوم بدور مستشار تقني للدعاية النازية تجاه البلـــدان العربية. وباعتراف من الإذاعة الألمانية، منحت الحكومة النازية لشكيب أرســـلان لقـــب "مواطن شرفي" بناء على اقتراح من الدكتور "غوبلز"(Goebbels).

وما إن ذاع في المشرق العربي خبر إقامة شكيب أرسلان في برلين حـــتى ثـــارت ردود فعل حادة ولا سيما في سوريا وبدأت حكومة دمشق بفصل الأمير مـــن مهامـــه كرئيس أو مدير للمجمع العربي تلك المهام التي لم يتقلدها في الواقع قط. وقام الأعيـــان الدروز من جهتهم بالتنديد جهارا نهارا بموقف الزعيم.

وعندما عاد شكيب أرسلان إلى جنيف قبل نهاية سنة 1939، أخذ يدرك ويقـــدر دون شك مدى وخاصة الآثار التي ستعود عليه بفعل تورطاته (المتهورة) مـــع الحكومـــة النازية. على أن تقدمه في السن وتدهور صحته يوما بعد يوم قد أخذا يقلصان نشـــــاطه السياسي بل ويبدو أنه سرعان ما بدأ يفقد ثقة مصالح الدعاية الألمانية فيه . وتحول مـــن جديد إلى الصحف العربية الصادرة في أمريكا والمغرب الإسباني لنشر مقالاته التي يـــهاجم فيها الحلفاء. واستطاع أن يحافظ على علاقات تراسلية متواصلة مع الملكـــين العربيـــين المستقلين في الجزيرة العربية الإمام يحي ملك اليمن والملك ابن الســـعود ملـــك المملكـــة العربية. وجاءت هزيمة إيطاليا ثم انـــدحار ألمانيا لتوجها ضربة قاضية لحياتـــه ككـــاتب مجادل ومناظر.

أخذت شخصية الأمير شكيب أرسلان تتضاءل ويسدل عليها الستار شيئا فشيئا منذ انتهاء الحرب وقد بلغ من الهوان ما جعل السلطات الحليفة تصادر أمواله في لبنان. وما من شك في أن العربية السعودية توسطت في خريف 1945 للمطالبة برفع إجراء الحجز المضروب على ممتلكاته ولكن دون جدوى لكن الحكومة اللبنانية منحت شكيب أرسلان رخصة بالعودة إلى وطنه الأصلي وكان ذلك بعد شهرين من حجز ممتلكاته غير أن الأمير انتظر بضعة أشهر أخرى قبل الإبحار في طريق العودة. فقد غادر مدينة مرسيليا على متن الباخرة "بروفيدانس" (Providence) في شهر أكتوبر 1946 وعند توقفه في الإسكندرية أجرى محادثة مع مفتي القدس أمين الحسيني . ونزل بيروت في 30 أكتوبر. وفي 9 ديسمبر من الشهر ذاته لفظ أنفاسه الأخيرة في تلك المدينة.

إن التذكير الذي أوردناه ببعض مراحل حياة الزعيم العربي السياسية لا يلقي – ونحن نؤكد ونلح على ذلك – أي ظلال قاتمة على نشاطه الخارق للعادة ككاتب من أكبر الكتاب. فهذا المجاهد بقلمه – كما يحلو للمعجبين به في المشرق أن ينعتوه به – قد خلف إنتاجا أدبيا وفكريا هائلا. وسنقتصر على ذكر مؤلفاته الرئيسية.

لقد رأينا في مفتتح هذه الدراسة أن أول ما نشره شكيب أرسلان كان ديوان شعر نشر في بيروت سنة 1887 بعنوان "الباكورة" وفي سنة 1935 طبع في القاهرة مجموع إنتاجه الشعري "ديوان شكيب أرسلان" كما قام بجمع أشعار شقيقه نسيب أرسلان وبنشرها مع تعاليق وإضافات عن الأسرة وأصلها وذلك في مجلد بعنوان "روض الشقيق" وله كذلك دراسة عن شوقي نشرت في القاهرة سنة 1936 وعنوانها "شوقي أو صداقة أربعين سنة".

وقد سبق أن تحدثنا في مكان آخر من هذه الدراسة عن كتاب "الحلل السندسية" الذي لم يستكمله شكيب أرسلان. وهو عبارة عن دراسة وافية عن مسلمي الأندلس. كما نشر في السنوات التي سبقت إعلان الحرب العالمية الثانية كتابا عنوانه "تاريخ الفتوحات العربية واتجاهها نحو فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزر البحر الأبيض المتوسط"

وترجمه "آخر بني سراج" للكاتب الفرنسي "شاطوبريان" مصحوبة بتعاليق ومذكرات عن مملكة غرناطة الناصرية في نهاية القرون الوسطى ونشر طبعة لكتاب "كتاب أخبار العصـر في انقضاء دولة بني نصر" ثم نشر في القاهرة الصيغة العربية لكتاب "العـالم الإسـلامي الجديد" لمؤلفه لـوثروب سكودارد (Lothrop Stoddard) ترجمة عجاج نويهد الفلسطيني ومنتخبات مـترجمة مـن دراسة حول "أنا طول فرانس" لمؤلفها جان جاك بروسـون (Jean Jacques Brousson) .

في الميدان السياسي، ترك لنا شكيب أرسلان زيادة على الكتيب الذي سبق ذكره عن أسباب تأخر المسلمين وتقدم غيرهم من الشعوب، والذي نشـرته "المنـار" في أول الأمر، دراسة عن رشيد رضا نشرها في دمشق سنة 1937.

كرس شكيب أرسلان كذلك جزءا من نشاطه لإصدار كتب قديمة. من ذلك أنه نشر في بيروت مرتين (1893 و1897) نص كتاب "الدرة اليتيمة" لابن المقفع، ورسـائل مختارة لأبي إسحاق إبراهيم الصابي (بعبده، لبنان 1898) وطبعة نشرت في القاهرة سـنة 1933 لكتاب زين الدين الخطيب عن الإمام الأوزاعي. نقلا عن مخطوط محفوظ في برلين.

وأخيرا نشر أخبار رحلته إلى البقاع المقدسة الإسـلامية لأداء الحـج بعنـوان "الارتسامات اللطاف إلى أقدس مطاف".

لقد كان النشاط العلمي الذي بذله شكيب أرسلان طوال حياته المديدة لتحضير ونشر ما سبق ذكره من الكتب والمؤلفات التي أوردنا قائمة وجيزة لها كافيا لكي يبوئـه المكانة البارزة ضمن مصاف أدباء العرب المعاصرين. غير أنه من المؤكد أيضا أنـه لـو تصدى المعجبون بالأمير شكيب أرسلان لجمع ما لا يحصى من مقالاته الـتي نشـرها في معظم الصحف العربية اليومية والدورية في المشرق وفي مصر وحتى في المغرب الإسـباني وأمريكا الجنوبية لاجتمع من مقالاته تلك مادة لعشرات مجلدات أخرى تضاف إلى المكتبة الحافلة التي تركها.

لقد حان الوقت لاختتام هذه الدراسة. قل من الرجال من نذروا حياتهم خـــلال السنوات الخمسين الأخيرة لخدمة العروبة فملئوها عطاء وسخاء وأبرزوا فيها مواهـــب خارقة في الكتابة والمقدرة على الجدال والمحاججة كالذي فعله الأمير شكيب أرســـلان. وقد شعر بذلك المشرق العربي وأدركوه وأكدوه عندما انهالت - لنبأ وفاتـــه – علـــى الصحف والمجلات مقالات لا تكاد تحصى أو تعد تأبينا له وتحية لروحه وذكراه، صارفـــة النظر عن الشبهات السياسية التي ألحقت به وعن تصريحاته ولهجاته اللاذعة التي ســخرها لخدمة دعاية المحور في بداية الحرب العالمية الثانية. ولا نقصد هنا الانتقاص من إخــــلاص شكيب أرسلان وصدقه ولا الحكم عن نيته الحسنة. وسيبقى ذكره خالدا خلود من وهب نفسه بطلا جريئا ومقداما، ودونما كلل أو ملل لخدمة قضية هي اليوم مدينة له بالكثير.

الهوامش:

1) — نقلا عن : Cahiers de l'Oriant Contemporain. IX – X, 1947, pp. 5 – 19

2) — عن أشغال هذا المؤتمر ومداه. أنظر: ر.مونطاني ، (ردود الفعل العربية ضد الصهيونية، في محادثات بشأن تطور البلدان العربية الحضارة، المجلد الثالث.

3) — هناك تحليل مطول لهذه المحاضرة في مجلة "أوربانتي موديرنو" 1938، الصفحات 403 – 405.